يصيح به جلادوه: اذكر اللات والعزى فيجيبهم: «أحد ...أحد».

بلال بن رباح .. مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم

بلال بن رباح الحبشي، أبو عبد الله، صحابي من السابقين إلى الإسلام كان مولى أو عبدا لبني جمح من قريش أعلن إسلامه فعذبه سيده أمية بن خلف الجمحي القرشي، فابتاعه أبو بكر الصديق وأعتقه، اشتهر بصبره على التعذيب وقولته الشهيرة تحت التعذيب «أحد أحد». كان جميل الصوت يغني في الجاهلية، فعندما ظهر الأذان بعد إسلامه كلفه رسول الله محمد بمهمة الأذان.

صفاته

شديد السمرة، نحيف، مفرط الطول، كثير الشعر، جميل الصوت، لم يكن يسمع كلمات المدح والثناء التي توجه اليه، الا ويحني رأسه ويغض طرفه وعبراته على وجنتيه تسيل ويقول: (إنما أنا حبشي كنت بالأمس عبدا).

ذهب يوما يخطب لنفسه ولأخيه زوجتين فقال لأبيهما: (أنا بلال وهذا أخي، عبدان من الحبشة، كنا ضالين فهدانا الله، وكنا عبدين فأعتقنا الله، إن تزوجونا فالحمد لله، وإن تمنعونا فالله أكبر).

إسلامه

إنه حبشي من أمة سوداء عبدان لأناس من بني جمح بمكة، حيث كانت أمه إحدى إمائهم وجواريهم، بدأت أنباء دعوة محمد تنادي سمعه، حين أخذ الناس في مكة يتناقلوها، وكان يصغي إلى أحاديث سادته وأضيافهم، ويوم إسلامه كان رسول الله وأبو بكر معتزلين في غار، إذ مرّ بهما بلال وهو في غنم عبد الله بن جدعان، فاطلع رسول الله رأسه من الغار وقال: « يا راعي هل من لبن؟ « فقال بلال: « ما لي إلا شاة منها قوتي، فإن شئتما آثرتكما بلبنها اليوم »، فقال رسول الله: « إيت بها! « فجاء بها بلال، فدعا رسول الله بقعبه، فاعتَقلها فحلب في القعب حتى ملأه، فشرب حتى روي، ثم حلب حتى ملأه فسقى أبا بكر، ثم احتلب حتى ملأه فسقى بلالاً حتى روي، ثم أرسلها وهي أحفل ما كانتْ، ثم قال: « يا غلام هل لك في الإسلام؟ فإني رسول الله »، فأسلم، وقال: « اكتم إسلامك « ففعل وانصرف بغنمه، وبات بها وقد أضعف لبنها، فقال له أهله: « لقد رعيت مرعىً طيباً فعليك به »، فعاد إليه ثلاثة أيام يسقيهما، ويتعلم الإسلام، حتى إذا كان اليوم الرابع، فمرّ أبو جهل بأهل عبد الله بن جدعان فقال: « إني أرى غنمك قد نمت وكثر لبنها؟» فقالوا: « قد كثر لبنها منذ ثلاثة أيام، وما نعرف ذلك منها!» فقال: « عبدكم وربّ الكعبة يعرف مكان ابن أبي كبشة، فامنعوه أن يرعى المرعى »، فمنعوه من ذلك المرعى.

ظهور أمره

دخل بلال يوماً الكعبة وقريش في ظهرها لا يعلم، فالتفتَ فلم يرَ أحداً، أتى الأصنام وجعل يبصُق عليها ويقول: « خابَ وخسرَ من عبدكُنّ «. فطلبته قريش فهرب حتى دخل دار سيده عبد الله بن جدعان فاختفى فيها، ونادَوْا عبد الله بن جدعان فخرج فقالوا: « أصبوتَ؟! « قال: « ومثلي يُقال له هذا؟! فعليّ نحرُ مئة ناقة للاّت والعُزّى »، قالوا: « فإنّ أسْوَدَك صنَع كذا وكذا «. فدعَا به فالتمسوه فوجدوه، فأتوهُ به فلم يعرفه، فدعا راعي ماله وغنمه فقال: « من هذا؟ ألم آمُرْك أن لا يبقى بها أحد من مولّديها إلا أخرجته؟ « فقال: « كان يرعى غنمك، ولم يكن أحد يعرفها غيره «. فقال لأبي جهل وأمية بن خلف: « شأنكما به فهو لكما، اصنعا به ما أحببتُما « وتجثموا الأرض فوق صدر أمية بن خلف الذي رأى في إسلام عبد من عبيدهم لطمة جللتهم بالخزي، فقال أمية: « إن شمس هذا اليوم لن تغرب إلا ويغرب معها إسلام هذا العبد الآبق!! «.

تعذيبه

وبدأ العذاب فقد كانوا يخرجون به في الظهيرة في صحراء مكة، فيطرحونه على حصاها الملتهب وهو من غير لباس، ثم يأتون بحجر متسعر ينقله من مكانه بضعة رجال ويلقون به فوقه، ويصيح به جلادوه: أذكر اللات والعزى فيجيبهم: «أحد ...أحد».

وإذا حان الأصيل أقاموه، وجعلوا في عنقه حبلا، ثم أمروا صبيانهم أن يطوفوا به جبال مكة وطرقها، وبلال لا يقول سوى: «أحد ...أحد». قال عمار بن ياسر: كلّ قد قال ما أرادوا –ويعني المستضعفين المعذّبين قالوا ما أراد المشركون– غير بلال ومرّ به ورقة بن نوفل وهو يعذب ويقول: «أحد ...أحد»، فقال: « يا بلال أحد أحد، والله لئن متّ على هذا لأتخذنّ قبرك حَنَاناً «، أي بركة.

الحرية

ذات يوم، كان أمية بن خلف يضرب بلالاً بالسوط، فمرّ عليه أبو بكر، فقال له: « يا أمية ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ إلى متى ستظل تعذبه هكذا؟ « فقال أمية: « أنت أفسدته فأنقذه مما ترى «، وواصل أمية ضربه لبلال، وقد يئس منه، فطلب أبو بكر شراءه، وأعطى أمية ثلاث أواق من الذهب نظير أن يترك بلالا، فقال أمية لأبي بكر الصديق: « فواللات والعزى، لو أبيت إلا أن تشتريه بأوقية واحدة لبعتكه بها «، فقال أبو بكر: « والله لو أبيت أنت إلا مائة أوقية لدفعتها «.

يوم بدر

نشب القتال بين المسلمين وجيش قريش وبلال ضمن جيش المسلمين، وبينما المعركة تقترب من نهايتها، لمح أمية بن خلف عبد الرحمن بن عوف صاحب رسول الله فاحتمى به وطلب منه أن يكون أسيره رجاء أن يخلص بحياته فلمحه بلال فصاح قائلا: « رأس الكفر، أمية بن خلف! لا نجوت إن نجا «، ورفع سيفه ليقطع رأسه فصاح به عبد الرحمن بن عوف: « أي بلال إنه أسيري «، ورأى بلال أنه لن يقدر وحده على اقتحام حمى أخيه في الدين فصاح بأعلى صوته في المسلمين: « يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا «، وأقبلت كوكبة من المسلمين وأحاطت بأمية وابنه، ولم يستطع عبد الرحمن بن عوف أن يصنع شيئا.

يوم الفتح

عاش بلال مع رسول الله يشهد معه المشاهد كلها، وكان يزداد قربا من قلب رسول الله الذي وصفه بأنه رجل من أهل الجنة وجاء فتح مكة، ودخل رسول الله الكعبة ومعه بلال، فأمره أن يؤذن.

فضله

قال رسول الله: « إني دخلتُ الجنة، فسمعت خشفةً بين يديّ، فقلتُ: يا جبريل ما هذه الخشفة؟ قال: بلال يمشي أمامك «. وقد سأل النبي بلالاً بأرْجى عمل عمله في الإسلام فقال: « لا أتطهّرُ إلاّ إذا صليت بذلك الطهور ما كتبَ لي أن أصلّيَ «.

– قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَبْلِي نَبِيٌّ إِلا قَدْ أُعْطِيَ سَبْعَةَ رُفَقَاءَ نُجَبَاءَ وُزَرَاءَ، وَإِنِّي أُعْطِيتُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ: حَمْزَةُ، وَجَعْفَرٌ، وَعَلِيٌّ، وَحَسَنٌ، وَحُسَيْنٌ، وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَالْمِقْدَادُ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَأَبُو ذَرٍّ، وَحُذَيْفَةُ، وَسَلْمَانُ، وَعَمَّارٌ، وَبِلَالٌ».

– وقدَ دخل بلالٌ على رسول الله وهو يتغدّى فقال له النبي: « الغداءَ يا بلالِ « فقال: « إني صائم يا رسول الله «، فقال: « نأكل رِزْقنا، وفضل رزق بلال في الجنة، أشعرتَ يا بلالِ أنّ الصائم تُسبّح عظامُهُ، وتستغفر له الملائكة ما أكل عنده «.

– وقد بلغَ بلال بن رباح أن ناساً يفضلونه على أبي بكر فقال: « كيف تفضِلوني عليه، وإنما أنا حسنة من حسناته! «.

الزواج

جاء بنو البُكير من بني ليث من قبيلة كنانة إلى رسول الله فقالوا: « زوّج أختنا فلاناً «، فقال لهم: « أين أنتم عن بلال؟ «، ثم جاؤوا الثالثة فقالوا: « أنكح أختنا فلانا «، فقال: « أين أنتم عن بلال؟ أين أنتم عن رجل من أهل الجنة؟ «، فأنكحوه.

وأتى النبي امرأة بلالٍ فسلّم وقال: «« أثمّ بلال؟ « فقالت: « لا «، قال: « فلعلك غَضِبَى على بلال! «، قالت: « إنه يجيئني كثيراً فيقول: قال رسول الله، قال رسول الله «، فقال لها رسول الله: « ما حدّثك عني بلالٌ فقد صَدَقك بلال، بلالٌ لا يكذب، لا تُغْضِبي بلالاً فلا يُقبل منكِ عملٌ ما أغضبتِ بلالاً «.

رباطه

بعد وفاة النبي واستخلاف المسلمين أبا بكر الصديق من بعده، ذهب بلال إلى الخليفة يقول له: « يا خليفة رسول الله، إني سمعت رسول الله يقول: أفضل عمل المؤمن الجهاد في سبيل الله «، فقال له أبو بكر: « فما تشاء يا بلال؟ «، قال: « أردت أن أرابط في سبيل الله حتى أموت «، قال أبو بكر: « ومن يؤذن لنا؟ «، قال بلال وعيناه تفيضان من الدمع: « إني لا أؤذن لأحد بعد رسول الله «، قال أبو بكر: « بل ائبق وأذن لنا يا بلال «، قال بلال: « إن كنت قد أعتقتني لأكون لك فليكن ما تريد، وإن كنت أعتقتني لله فدعني وما أعتقتني له «، قال أبو بكر: « بل أعتقتك لله يا بلال «.

ويختلف الرواة في أنه سافر إلى الشام حيث بقي مرابطا ومجاهدا، ويروي بعضهم أنه قبل رجاء أبي بكر وبقي في المدينة فلما قبض وولى الخلافة عمر، استأذنه وخرج إلى الشام.

بعض المواقف من حياته مع الرسول صلى الله عليه وسلم

روى أبو داود بسنده عن عبد الله الهوزني قال: لقيت بلالا مؤذن رسول الله بحلب، فقلت: «يا بلال حدثني كيف كانت نفقة رسول الله؟ «، قال: « ما كان له شيء كنت أنا الذي ألي ذلك منه منذ بعثه الله إلى أن توفي، وكان إذا أتاه الإنسان مسلما فرآه عاريا يأمرني فأنطلق فأستقرض فأشتري له البردة فأكسوه وأطعمه، حتى اعترضني رجل من المشركين فقال: يا بلال إن عندي سعة فلا تستقرض من أحد إلا مني ففعلت، فلما أن كان ذات يوم توضأت ثم قمت لأؤذن بالصلاة فإذا المشرك قد أقبل في عصابة من التجار فلما أن رآني قال: يا حبشي! قلت: يا لباه، فتجهمني وقال لي قولا غليظا وقال لي: أتدري كم بينك وبين الشهر؟ قال: قلت: قريب. قال: إنما بينك وبينه أربع فآخذك بالذي عليك فأردك ترعى الغنم كما كنت قبل ذلك فأخذ في نفسي ما يأخذ في أنفس الناس حتى إذا صليت العتمة رجع رسول الله إلى أهله فاستأذنت عليه فأذن لي فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي إن المشرك الذي كنت أتدين منه قال لي كذا وكذا وليس عندك ما تقضي عني ولا عندي وهو فاضحي فأذن لي أن آبق إلى بعض هؤلاء الأحياء الذين قد أسلموا حتى يرزق الله رسوله ما يقضي عني فخرجت حتى إذا أتيت منزلي فجعلت سيفي وجرابي ونعلي ومجني عند رأسي حتى إذا انشق عمود الصبح الأول أردت أن أنطلق فإذا إنسان يسعى يدعو: يا بلال أجب رسول الله فانطلقت حتى أتيته فإذا أربع ركائب مناخات عليهن أحمالهن فاستأذنت فقال لي رسول الله: « أبشر فقد جاءك الله بقضائك «، ثم قال: « ألم تر الركائب المناخات الأربع ؟» فقلت: بلى فقال: « إن لك رقابهن وما عليهن فإن عليهن كسوة وطعاما أهداهن إلي عظيم فدك فاقبضهن واقض دينك «، ففعلت فذكر الحديث. ثم انطلقت إلى المسجد فإذا رسول الله قاعد في المسجد فسلمت عليه فقال: « ما فعل ما قبلك؟ « قلت: قد قضى الله كل شيء كان على رسول الله فلم يبق شيء قال: « أفضل شيء؟ « قلت: نعم قال: « انظر أن تريحني منه فإني لست بداخل على أحد من أهلي حتى تريحني منه «، فلما صلى رسول الله العتمة دعاني فقال: « ما فعل الذي قبلك؟ « قال: قلت: هو معي لم يأتنا أحد فبات رسول الله في المسجد وقص الحديث حتى إذا صلى العتمة يعني من الغد دعاني قال: « ما فعل الذي قبلك « قال: قلت: قد أراحك الله منه يا رسول الله فكبر وحمد الله شفقا من أن يدركه الموت وعنده ذلك ثم اتبعته حتى إذا جاء أزواجه فسلم على امرأة امرأة حتى أتى مبيته فهذا الذي سألتني عنه.»

الآذان الأخير

وكان آخر الأذان له يوم توفي رسول الله، وعندما فتح عمر بن الخطاب بيت المقدس توسل المسلمون إليه أن يحمل بلالا على أن يؤذن لهم صلاة واحدة، ودعا عمر بن الخطاب بلالاً، وقد حان وقت الصلاة ورجاه أن يؤذن لها، وصعد بلال وأذن فبكى الصحابة الذين كانوا أدركوا الرسول وبلال يؤذن، وبكوا كما لم يبكوا من قبل، وكان عمر أشدهم بكاءً.

وفاته

حينما أتى بلالا الموت، قالت زوجته: « وا حزناه! «، فكشف الغطاء عن وجهه وهو في سكرات الموت وقال: لا تقولي واحزناه، وقولي وا رحاه غدا نلقى الأحبة، محمدا وصحبه.

توفي بلال في الشام كما أراد ودفن في دمشق سنة 20 هـ، وقبره هناك. كما يوجد مقام له في «قرية بلال» في ضواحي مدينة عمان في الأردن.